« فاعلات » وتحول إلى « فاعلان »

وعجيب أمر هذه الظاهرة فى بحر الرمل من حيث استعمال العرب له . فانهم أكثروا من استعماله فى العروض والضرب المحذوفين — أى اللذين — دخلهما « الحذف » فصارا على وزن « فاعلن » . على حين أن « مهيار الديلمى » و « أحمد شوقى » أكثرا من استعماله فى الضرب التام الصحيح والعروض التامة المحذوفة ، مع الفرق الذى أشرنا إليه قبلا : وهو أن مهيارا لم يلتزم العلة فى العروض بينما التزمها شوقى

أما الشعراء المذليون — وقد جمع ديوان شعرهم الضخم بعناية دار الكتب المصرية — فلم ينظموا من بحر الرمل ولم يلجأوا إلى وزنه الموسيقى الجميل للتعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم ؛ ولعلهم تركوا (التزام العلة) فى هذا البحر واختلاف الأذن فيها طلبا للعافية وإيثارا للسلامة ! ولكننى — وقد نظمت قصيدتى على طلقات المدافع من هذا البحر غير ملتزم علة الحذف — فانى أرجو أن أكون قد بلغت من رضا المرحوم المرصفى فى رأيه ، ومن ثقة الشاعر الكبير مهيار فى شعره ما أحسب الأستاذ الأديب النابه محمد رجب البيومى يرضى به ، لأنه حينئذ يرضى بالحق الذى ننشده وينشده كل منصف لنفسه ولغيره

محمد عبد الغنى حسن

تعفن المذهب المادى

للأستاذ محمد فرحات عمر

دعانى إلى الكتابة فى هذا الموضوع كثرة الكلام عن الإلحاد وضرره وشيوعه بين الشباب ومدى أخذهم به واعتناقهم له . لذلك أزمعت الكتابة فيه ؛ على أن تناولى أياه إنما سيكون من جهته الفلسفية الخالصة إلى جانب مناقشته تحت ضوء العلم الحديث .

وروح المذهب المادى الذى هو دعامة الالحاد تتخلص فى اعتبار المادة أساسا للموجود من حيث هو موجود ، واعتبار قوانينها أساسا لأعراض الموجود ؛ فإن سئل أصحاب هذا المذهب بأى اعتبار كانت قوانين المادة أساسا لأعراض الموجود ؟ أجابوا .. باعتبار الإتفاق والضرورة معا . . الاتفاق فى تصادم هذه القوانين ، والضرورة فى تفاعلها وصيرورتها ؛ ومن ثم ظهور الوجود فى حالة جديدة مغايرة للحالة الأولى من حيث الشكل

ويلزم عن هذا كله أن يكون الوجود ميكانيكيا صرفا باعتبار نتيجة حتمية عن أسبابها ، خالية من شوائب الشذوذ

هذه هى روح المذهب المادى بمنتهى الإيجاز والتركيز ، ولم يبق أمامنا الآن الا أن نشاهد روح هذا المذهب تحت أشعة النقد

أولا .. إننى فى حدود معرفتى لا أملك المادة فى ذاتها وإنما أملك صورة للمادة سواء أكانت صورة جزئية أم صورة ، وعلى ذلك فاقامة مذهب مادى محض باعتبار المادة فى ذاتها على أساس تصورى هو من باب التناقض وهو خلف . فإن أرادوا تفادى هذا التناقض بالمطابقة بين الصورة والأصل معتمدين فى هذا على مذهبهم التجريبى فأنهم فى هذه الحالة سيطابقون بين صورة المادة وصورة المادة ، وهذا تحصيل حاصل وفشل فاضح فى الوصول إلى نتيجة حاسمة

ثانيا .. المنهج الحسى هو أداة المعرفة عند المادية . وما هو ذو مغزى أن المادية بهذا الوضع فى حالة لا تحسد عليها . فالمعرفة الحسية أدنى مراتب اليقين إن لم تكن خارج حدود اليقين على الاطلاق .. ثم إننى الآن أمام مكتبى وهأنذا أكتب هذا المقال وليس عندى أى شك فى وجود مكتبى أمامى ووجود قلمى بين أصابعى ، ولكن مع هذا فالمجنون أيضا يجزم لك أنه قابل النبى عليه السلام منذ هنيهة ، وأنه الآن بجانب حبيبته . وعبثا تحاول أن ترده عن مثل هذه الترهات فانه على يقين من ادعائه أنه يرى حبيبته الآن بجانبه .. ما العمل ؟ ايكذب نظره .. هيهات ثم هيهات !

ثم ما رأى حضرات الحسيين الأفاضل فى قطرة الدم التى أراها بعينى المجردة حمراء اللون فاذا رأيتها تحت المجهر لاحت لى فى كرات بيضاء وكرات حمراء ؟ إن الحواس لتتناقض فى غاية السرعة لمجرد مضاعفتها . ومن يأمنها بعد ذلك ؟ أليس يجوز فى العقل أننا لو وصلنا إلى مضاعفة قوة هذا المجهر لظهرت لنا كرات

بيضاء وكرات حمراء وثالثة صفراء ورابعة خضراء .. ابعد هذا تكون الحواس طريقا قويما إلى معرفة يقينية ؟

ثالثا .. إذا سلمنا جدلا بأن المادة فى ذاتها مبدأ وجودى فأننا لا نستطيع أن نعتبرها المبدأ الوجودى الوحيد، وذلك أننا إذا تأملنا الفرد الإنسانى وجدنا تركيبه الكيماوى وقوامه البيولوجى فى سن الطفولة غيره فى الشيخوخة . وبرغم هذا نراه محتفظا بذاتيته من حيث هى مما يدل على أن الذاتية جوهر مغاير لجوهر المادة وأنه شئ له كيانه الوجودى غير المترتب دائما على الظروف المادية البحتة

رابعا : لا يمكننا بأى حال من الأحوال قبول الميكانيكية ناموسا للكون، لأننا نجد فى الإنسان من حيث هو إنسان شيئا يتعالى على الميكانيكية .. نعم .. الإنسان من حيث هو، ثم من حيث أنه عنصر من عناصر هذا الوجود لا نجده يندرج تحت الميكانيكية ألبتة . ويكفى للتدليل على دعوانا ما قرره فريق من علماء النفس أن الإرادة عنصر جوهرى من عناصر النفس الإنسانية. ويجمل بالقارئ العزيز أن يدرك جيدا ما أقصده بمعنى الإرادة هنا ؛ فإننى أعنى بها الإرادة السيكلوجية الخالصة التى يدركها كل منا بإحساسه المميز بها. إذ أنها تفرض نفسها فرضا، ومن ثم وجب عدم الخلط بين الإرادة فى ذاتها ومدى أثرها فى حيز الواقع العملى

خامسا .. النظرية المادية القائلة بالصدفة نظرية واضحة البطلان من جهة أنها لا تقوم على أساس سليم. ولكى يتضح لنا هذا يجب أولا أن نوضح ماهية الصدفة وعلاقتها بالفعل الذى يخرج عنها . فالصدفة اتفاق أسباب ما للوصول إلى نتيجة ما بدون سابق قصد أو عمد أو أصرار . والقصد هو اتفاق أسباب ما للوصول إلى نتيجة ما مع سابق القصد والعمد والإصرار . فالفرق بين الصدفة والقصد إنما يتركز حول مبدأ الأسباب المعينة التى أدت إلى هذه النتيجة المعينة التى هى واحدة فى كلتا الحالتين . وعلى ذلك لا يصح أن تستغل كدليل على حالة دون أخرى. فذلك يخطئ الماديون من حيث أرادوا أن يتخذوا من العالم وهو بطبيعة الحال نتيجة لأسباب مجهولة دليلا ليؤولوا به مبدأ الصدفة . ومثل من حاول هذه المحاولات كمثل رجل وجد فى طريقه حافظة نقود فأراد أن يعلل وجودها .. هل كان هذا عن قصد من صاحبها أم هو مجرد اتفاق . والحقيقة أن أى جواب عن هذه المسألة سيكون من باب الترجيح لا من باب التوكيد الذى هو أساس العلم الثابت وفضلا عن هذا فإن الجواب من هذه المسألة يمتاز بقياس الشاهد على الغائب على عكس موضوعنا الأصيل . فالعالم من حيث هو نتيجة لا يصح إلا أن يكون وسيلة لتفسير أسبابه من حيث هى أسباب فى ذاتها ومعلق هويتها. أما أن يتخذ مصباحا للكشف عن مبدأ أسبابه فهذا فساد دونه أى فساد . فان قال الماديون إذا سلمنا أن هذا العالم وجد عن قصد فان العالم يضم بين دفتيه من الخلل ما يتنافى مع كمال القاصد . وعلى ذلك لم يعد هناك مبرر لعدم التسليم بأن العالم جاء عن اتفاق

قلنا إن هذا القول عليه اعتراضات يطول شرحها؛ لذلك نركز أهمها فى ثلاث نقط :

أولا ـ هذا القول ان صح أنه دليل على الصدفة فهو دليل سلبى

ثانيا ـ البحث فى صفات القاصد الكامل هو خروج عن حدود طاقة العقل البشرى، فلا يجدر بأى باحث أن يتناول فكرة القاصد وهو الله على أساس البحث فى صفاته ، بل يجب تناول الموضوع على أساس آخر هو مبدأ الوجود ذاته ومدى قبول العقل له . من هذا يتضح أن نظرية الصدفة القائمة على نفى القاصد بالخط من شأنه نظرية غير قائمة على أساس منهجى سليم . فضلا عن هذا فان اعتراضهم على القاصد لا يؤدى بنا إلى نفى وجوده البتة، وإنما يؤدى إلى حد كماله. ومع ذلك فهو ليس بغريب على المتألهة المحدثين وخصوصا السير جون استيوارت مل.

ثالثا ـ ان اقرارهم بأن العالم يحوى خللا بين دفتيه . . تناقض واضح مع قولهم بالميكانيكية الصرفة التى تمتاز بطلوها عن شوائب الشذوذ. ثم من جهة أخرى ترى هذا القول على العكس يأتى فى صف القائلين بالقاصد لأنه ان دل فانما يدل على أن ثمت قاصد صاحب إرادة حرة يفعل وراء هذا الكون ما يشاء وهو قاصد ذلك

والآن بعد أن تناولنا أهم دعائم هذا المذهب بالنقد ووضحنا مركز هذا المذهب فى نظر الفلسفة حان الوقت لأن نتعرف على الصلة المزعومة بين هذا المذهب والعلم الحديث

يدعى الطبيعيون أنهم اعتمدوا على النظريات العلمية الحديثة فيما ذهبوا إليه، ومع هذا فاننا نجد العلم الحديث يتخلى عنهم فى أخطر المواقف وأدقها

(ا) المذهب المادى يدعى أن كل معرفة انسانية إنما ترجع إلى حيز المحسوس، بينما علم الفسيولوجيا يقرر بأن اختصاص الجهاز العصبى لا يتعدى المعرفة المباشرة الميكانيكية ؛ أما المعانى المجردة والمعانى الكلية فيترك أمرها معلقا فى الهواء . وإذن فالقول بأن المعانى المجردة والمعانى الكلية ترجع أيضا إلى الحس هو قول من باب الترجيح بدون مرجحات؛ وقد أحالت ذلك بداهة العقل

(ب) العلم الحديث لم يصل بعد إلى ماهية الكون، فهو يقرر بأن الكون مكون من أجسام وكل جسم يتألف من ذرات وكل ذرة من هذه الذرات تتألف من النواة والكهارب السالبة والكهارب الموجبة، ثم هذا كله إنما ينتهى إلى الاشعاع.. وما هو الاشعاع ؟ هو موجات.. ثم ما هى الموجات ؟ هى ذبذبات، ثم يقف بك العلم الحديث عند هذا فلا يفسر لك ماهية الضوء تفسيرا مجديا اللهم إلا تفسيرات شكلية . وهكذا يعترف لك العلم الحديث أنه لا يدرى من هذا الأمر شيئا

(ج) يدعى أصحاب هذا المذهب التقدمي وهم فى ادعائهم هذا قد ساروا من التهافت بمكان ، وأصبحوا عرضة لهم ومذهبهم فى مهب الريح.. وبيع النقد العاتية؛ أقول يدعى أصحابنا الطبيعيون أن نظرية التطور والارتقاء إنما هى دعامة أساسية من دعائم مذهبهم المحبوب المدلل .. وردنا عليهم فى غاية السهولة نوجزه فيما يلى

١ ـ نظرية التطور والارتقاء لا تبحث إلا فيما بعد أصل الحياة من نشوء بعض الأحياء من بعض على مر الزمان وتحت ظروف طبيعية معينة؛ أما البحث فى أصل الحياة والقول بالتولد الذاتى وهو بيت القصيد عند المادية فليس من اختصاص التطور على الاطلاق وليس احجام التطور من تناول مثل هذا الموضوع ضربا من الاضراب عن العمل

٢ ـ الغريب حقا — وان كان لا يستغرب من الماديين أى عمل مهما كان مخالفا لطبائع الأشياء — أنهم قالوا بالتولد الذاتى ولم يثبتوه بتجربة اللهم إلا فروضا ما أنزل الله بها من سلطان، بل لو وصل المادية فيما بعد إلى إثبات التولد الذاتى بالتجربة فان هذا لا ينزع مبدأ العلة الأولى عندنا (خلق الإنسان من صلصال كالفخار)

٣ ـ ان نظرية التطور لا تخالفنا فى جانب الطبيعيين بتاتا. وخير دليل على ذلك ما نراه من إلحاح الكائنات فى التطور والارتقاء وكأنه غاية يعقلونها، أو أن محركهم إلى التطور يعقلها تمام التعقل، ثم تناسق أعضاء الحى الواحد تناسقا إعجازيا يقوم برهانا واضحا على المنظم البصير بأعماله . وفضلا من ذلك تعقد بعض الخلقات تعقدا لا يجعلنا نسلم بأن الظروف الطبيعية وحدها علة ذلك كله، أو أن كل هذا كان محض اتفاق واعتباط . هذه هى الصلة بين المذهب الطبيعى والعلم الحديث وما أضعفها من صلة وما أهونها ! ولكن هيهات أن يعترف بهذا أصحاب هذا المذهب الكسيح . لكن هناك نقطة هامة يجمل بنا إجمالها قبل أن ننهى هذا المقال، وهى تدور حول نظرية النسبية للعلامة ألبرت إينشتين ؛ تلك النظرية التى أرجعت هذا الكون بما حل إلى مجرد نسب زمانية ومكانية خالصة؛ وأثبت هذا على أسس رياضية سلم بها جميع الخاصة من أصحاب الرياضة . أقولها صراحة إن ظهور هذه النظرية كانت بمثابة لطمة صمت من جرائها المذهب المادى وخر صريعا وسط الميدان

هذه خلاصة موجزة لأهم الاعتراضات التى تقوم على هذا المذهب المتهافت . ولا يظن القارئ الفاضل أننا هنا قد وفينا هذا الموضوع بل لو كان فى نيتنا أن نوفيه حقه لالتزم ذلك المجلدات الضخام ولكننا هنا آثرنا أن نعرض أهم الاعتراضات العامة التى تنصب على قلب هذا المذهب المنهار فتكون كفيلة بالقضاء على بقاياه

محمد فرحات عمر

٣٧٠٥٠